الرواية النوبية
بين معيارى اللغة والمضمون

للأستاذ الدكتور
زهران محمد جبر عبد الحميد
أستاذ الأدب والنقد
كلية اللغة العربية بأسيوط

لا يمكن للأدب أن ينغلق مفهومه فى تعريف حاد واحد ، وذلك لأن الأدب مرآة تعكس الحياة ، والحياة المتطورة ، ولا يصلح المقنن الجامد أن يكون وعاء لمتطور بطبعه بحال ، ولذا فالأدب : رؤية وصورة تنبض بالحياة ، يتفاعل مع الكون ، ويترجم علاقة الإنسان به وبمن حوله فى آن واحد ، فهو استباق وحدس واسترجاع وتصور وغاية .

وإذا كان شهر أكتوبر سنة ١٩٦٣م ، طرقة نحاسية هائلة فى الكيان النوبى ، مثل الطرقات المسرحية التقليدية التى يلتقى بعدها المشاهدون بحياة جديدة ذات طعم مختلف تمام الاختلاف عن الحياة الأولى ، فقد رأت ثورة ٥٢ الاشتراكية أن يكون المدخل لمجتمع الكفاية والعدل هو السد العالى ، وهكذا حمل النوبيون أمتعتهم إلى الشمال غير القريب فى صحراء كوم أمبو يضحكون قليلا ، ويبكون أقسى ما يكون البكاء ، ومن خلال

هاتين العاطفتين المتناقضتين كان لابد للأدب أن يمارس واجبه المقدس مسجلا ومؤرخا ، وملهما وباعثا للأمل أو ناعيا له[١] .

ولكى نفسر هذه العواطف المتناقضة ، لابد أن نقوم بعملية تفتيت وتجزىء تتضح من خلالها التفاصيل الدقيقة المكونة لهذه السبيكة الغريبة .

كانت بلاد النوبة تقف على الشاطئ بعد انتهاء خط السكك الحديدية فى أسوان عند الشلال الأول ، لتستقبل ركاب (البوسطة) الباخرة التى تنقل المسافرين إلى مناطق النوبة من مصر ثم إلى امتداد قراهم داخل حدود السودان .

كانت تلك السفينة التى انتهت اليوم تماما من حياة النوبى مع انتهاء علاقته بنهر النيل ، حين أقصى عنه بعيدا قسرا ، شأنها فى ذلك شأن الوسائل القديمة للحياة عند النوبى التى ما زالت تترك آثارها الوجدانية فى القصة والشعر النوبيين ، تبدأ رحلتها النهرية فتقطع "مائة وخمسين كيلا" فى المنطقة الكنزية لتمر بدابود ودهميت والأمبركاب وكلابشة وأبوهور ومرواو وماريه وجرف حسين وقرشة وكشتمنة والدكة والعلاقى وقورتة والمحرقة والسيالة والمضيق ، وهذه المنطقة هى أولى مناطق

---

[١] صـ ١٠٤ ، مجلة الشعر عدد ديسمبر ١٩٦٤م ، مقال بقلم إبراهيم شعراوى بتصرف .

النوبة التى استقبلت نكبة التعلية الأولى لخزان أسوان ، ولها لغتها الخاصة ، وأساليبها الخاصة فى البناء والتطريز والثياب والفنون التعبيرية .

ثم تمر السفينة بالمنطقة الوسطى العربية العقيلية لمسافة أربعين كيلا ، بالسبوع ووداى العرب وشاترمة والمالكى والسنقارى وهذه منطقة عربية تجرى فى عروق أبنائها دماء بيت النبوة ، وتنتشر بينهم الترعات الغيبية والصوفية ، وتكاد بيئتهم تصبح لبنة من البادية العربية ، نقلت بعناية وحرص إلى قلب المنطقة النوبية من غير أن تتسكب من أوعيتها قطرة واحدة ، كما يقول الأديب والكاتب النوبى الأستاذ إبراهيم شعراوى ، وأخيرا تصافح وجهك نسمات خصبة مترعة بالغناء وإيقاعات (النقرشاد) و (الكومبنكاش) عامرة بالأساطير والخرافات (أركبيه) ، (أمن دجر) ، (أمن تو) غنية فى ثمارها، مشرقة فى فنونها ، وهى منطقة (الفاديجا) حيث تسير السفينة مائة وخمسين كيلا بين قرى كورسكو وأرمنا ، وأبو حنضل ، فالريقة والديوان والدر وتنقالة وتوماس وعافية وإبريم وعنيبة والجنينة والشباك ومصمص وتوشكى وفريق (أبوسمبل) وبلانة وقسطل وأندان ، التى تنتهى عندها وبها النوبة المصرية ، ولكن بلاد النوبة لا تنتهى بل تتمطى كالعملاق إلى الشلال

الرابع فى دنقلة التى زودت الثورة المهدية بـأعظم قوادهـا[١].

انتقلت هذه القرى بعد بناء السد العالى إلـى منطقـة كـوم امبـو شرق النيل بالتقسيم الجغرافى نفسـه ، وبأسـماء القـرى والنجـوع مع فارق جوهرى فى نمط البيوت والخدمـات مـع الحجـب التـام عن نهر النيل ، الذى كان يعد عصب الحيـاة للإنسـان النوبـى .

ومع هـذا الابتـهاج المؤقـت الـذى استشـعره أهـل النوبـة بالتهجير فى أوله ، ثم كانت قلـوب النوبيـن تبكـى أمـر البكـاء وأقساه وتنفطر على ملاعب الصبا وذكريـات النـهر الـذى كـانت أمواجه تلعـق أعتـاب البيـوت ، هـذا النـهر الرهيـب الحنـون الصامت عن أسراره ، الهائج الثائر فى أيـام (الدمـيرة) ، وكذلـك إذا اعترضه عارض ، يمتلئ أعماقه بقصـور الجنيـات ، ومـمـالك الأعماق ، وتسبح فوقه تماسيح هائلـة ، يحلـو لـها أن تخطـف ـ كما فى الأساطير ـ أجمل فتيـات القـرى ليتزوجـها فـى جزيـرة نائية لم تخطر بقلب بشر ، مواويـل أسـاطير ، وأسـاطير مواويـل غذتها محنة كانت مـن أعظـم المحـن ، لـم يسـتطيع النوبـى أن يتحملها ، هل يمكن أن نتصـور كائنـا يعيـش فـوق قطعـة مـن الأرض ذات حضارة موغلة بلا عملة ولا حكومـة آمنـا مطمئنـا ،

---

[١] السابق : بتصرف .

ذلك حلم تصطرع البشرية من أجل الاقتراب منه ، هذا الحلم كان هو حياة النوبيين ، تقوم على مبادلة السلعة بالسلعة ، وبعض ما يحصدون ببعض ما يجنون ، طبيعة مفتوحة لا تحدها حدود ، وأفق يغرى بالانطلاق ، البساطة في أجمل معانيها وأجلها ، نهر وسهل وبسيطة وجبال ، ونخيل باسقات ، ومجتمع قبلى التكوين ، عائلى العرى ، له أعرافه وتقاليده ، وثوابته وأصوله ، في منطقة كانت بمنجاة من العيون والأسماع.

أولا : لأن أهلها بطبيعتهم لا يقفون خارج جبهة القبيلة .

ثانيا : لأن اللغة غير المكتوبة كانت بالنسبة للدولة مثل موقفنا من زقزقة العصافير تملأ القلب والأذن ولكنها تعصى على الإدراك ولا تصل إلى التفسير .

من هذه الشئون والشجون كان الأدب المعبر عن هذه المنطقة من خلال رؤى الكتاب النوبيين وشعرائهم ، أدب ذو طابع نوبى في المضمون والموضوع ، عربى في الشكل والقالب والإطار .

كتابات لها خصوصية الانتماء إلى بقعة تحضنها معابد تعلو شامخة على ضفتى النيل مترعة بالأسرار ، كما أن لها سمات مستمدة من حكى الجدات ، وإرث موغل في الغموض . ولأن

التعميم لا يفيد فى أمور البحث ، فمن الأجدى أن يحدد إطار الحديث فى الأدب النوبى عن الشكل والمضمون ، اللغة والفحوى .

من الصعب جدا على الباحث فى هذا الأدب أن ينطلق واثقا إلى غايته من نقطة ثابتة واضحة المعالم معه لا يخشى الذلل ، أو النكوص على الأعقاب فور الإبحار من شاطئ هلامى ، ذلك لأنه حتى الآن ليس بين أيدينا أو على الأقل بين يدى من المراجع ما يمكننى من الاتكاء عليه ، ومن المصادر إلا القليل المعروف مما يصلح أن يكون قنطرة أتجاوز عليها إلى اليابس المقابل ، ليس فى الإمكان أن أحصل على أكثر مما كتبه روائيو النوبة بداية منذ عهد قريب جدا حتى الآن لا ينغرس فى صلب الزمن إلى أكثر من خمسة وثلاثين عاما ، وبالتحديد بعد الهجرة الأخيرة عام ١٩٦٣م بأعوام قلائل ، حيث كانت المحاولات الأولى للكاتب المرحوم محمد خليل قاسم الذى أثمرت محصلة تجاربه القصصية عن رائعته (الشمندورة) التى أصدرها عام ١٩٨٦م ، ومعها (الخالة عيشة) ، ومن قبله بعام كان إدريس على يصدر روايته (المبعدون) سنة ١٩٨٥م ، ثم (واحد ضد الجميع) عام ١٩٨٧م ، ثم (دنقلة) عام ١٩٩٣م ، وفى الفترة نفسها كان حجاج أدول يصدر مجموعته (ليالى المسك العتيقة)

عام ١٩٨٩م ، أتبعها بـ (الكشر) عام ١٩٩٢م ، ثم (ناس النهر) عام ١٩٩٣م ، كذلك (بكات الدم) ثم نشر للروائى النوبى حسن نور عدة روايات منها : (رحلة فى حياة طفل نوبى) عام ١٩٨٠ ، (بين النهر والجبل) عام ١٩٩١ ، (عينان زرقاوان) عام ١٩٩٥ ، (خور رحمة) عام ١٩٩٨ ، (دوامات الشمال) عام ١٩٩٩ ، ثم (بحر الزين) عام ٢٠٠١ ، وتوالى بعد ذلك نشر روايات الكتاب النوبيين وإبداعاتهم فى مجال القصة والقصة القصيرة .

وإن أعجب ، فلا أعجب إلا من شيئيين هنا :

أولهما : تأخر ظهور هذا الجنس الأدبى عند أدباء النوبة مع توفرهم على الأسباب الداعية إلى ذلك .

ثانيهما : قلة النتاج مع أن هذا الوادى المترامى الأطراف كان قد تصلب عوده منذ زمن سحقيق على مدى تاريخ تجزر عمقا ضاربا بعروقه عند معابد القدماء رمسيس ونفرتارى وتوت عنخ آمون جنوبا حتى معابد فيلة شمالا بحضارة راسخة ظللت كل جوانب الحياة وأسهمت بمدها فى حضارات أخرى .

أرض محروسة بأدعية الكهنة منذ فجر التاريخ ومروية بقرابين الآلهة ، وسكرى بأناشيد الجوقة ، كل ذلك ولم تكن هناك مسايرة أو نتاج أدبى روائى لهذه الحضارة العريقة فى

نتاجها الثقافى المكتوب لأن المنقول شفاهة فى ألوان شتى من المعرفة ثرى ثراء لا ينكر خاصة فى الشعر .

ولكن ربما يعزى السبب إلى أن هذا السهل المنبسط على ضفتى النيل الحاضن لبلاد النوبة قبل التهجير ، والممتد مع النهر الخالد من الشلال الأول عند أسوان شمالا ، حتى دنقلة فى السودان جنوبا ، ظل فى معزل عن التطورات التى تحدث فى الجنوب القريب والشمال البعيد ، كما ظلت المنطقة طلسما وكتابا مغلقا محاطا برصد التقاليد ، وتمائم التعاويذ .

كما أنها لم تلق إلا الإهمال من الحكومات المتتابعة فى الشمال فى العهود القريبة ، ثم الغزوات المتعاقبة والقتال كرا وفرا ، مدا وجزرا فى العصور التى سلفت ، مما أصاب الناس بالرهق والوهن ، وبما لم يدع وقتا لاستثمار ذلك الثراء فى بعديه الحضارى والبشرى ، واستنيموا دهرا ، ولم يصح الأحفاد إلا على وقع النكبات الموجعة التى زلزلت الكيان ، وهزتهم بعنف ، وحملتهم عنوة إلى حيث محبس الجن فى صحراء كوم امبو كما زعموا .

على كل حال هناك أدب : شعر ونثر نوبيان ، ولكنه أدب تشده التفاصيل الدقيقة والهموم المتضمنة والأوجاع المجسدة والآمال والأمانى المتخيلة فيه إلى بيئة النوبة المستغرقة للزمان

والمكان فيما قبل وفيما بعد ، ووشائج قربى وصلة معايشة فى إنسانيته إلى الوطن الأم ــ وكما أسلفت ــ لا أستطيع أن أضع يدى على تاريخ مفصل بجدول تطور هذا الأدب النوبى ، كما هو مثلا عند عبد المحسن طه بدر فى (تطور الرواية العربية فى مصر) ، أو صنيع إبراهيم السعافين فى (تطور الرواية الحديثة فى بلاد الشام) ، وغيرهما ممن رصدوا مسيرة هذا الأدب عند اليفاعة حتى الاستواء على سوقه كفن مستقل له خصائصه وسماته ، ومع هذا فإنه من اليسير جدا أن نتابع النماذج النوبية فى الرواية ، تلك التى بلغت حد النضج الفنى ، واحتلت مكانها بين مثيلاتها من إبداعات الأساتذة والأتراب فى الشمال بالدراسة والتقويم .

ولعل كاتب هذا البحث هو أول من يمهد الطريق لمثل تلك الدراسات ويضرب بقلمه فى حقل ما زال بكرا ، وبمعوله فى تربة بعد لم يستكشف عن الحديث فى التطور والكم بتسليط الضوء على إشكالية الأدب النوبى من حيث اللغة والمضمون من خلال دراسة بعض الروايات النوبية التى وقعت فى يدى .

ولى أن أسأل هنا ، ما الرواية النوبية ؟ هل ما أقرؤه فى (الشمندورة) لخليل قاسم ، أو (الكشر) لحجاج أوول ، أو (دنقلة) لإدريس على أو غيرهم من كتاب النوبة يختلف ويمتاز عما

أقرؤه لنجيب محفوظ والسحار والشرقاوى وخورشيد وسعد مكاوى وغيرهم ؟ وإن كان فما الفرق ؟ مع الوضع فى الاعتبار رؤية كل فى عمله واتجاهه وأسلوبه الخاص فى معالجة قصيدته ، وطريقته فى إحكام البناء الدرامى لروايته ، وأثر ثقافته على كل ذلك .

أقول للإجابة على هذه التساؤلات ، مما هو معلوم سلفا أن الفكرة أيا كانت هذه الفكرة ، لكى تنقل إلى الغير (المتلقى) لابد لها من وسيلة للإفصاح عنها أولا ، ثم التفاعل بها ومعها ثانيا ، وهذه الوسيلة تتمثل فقط فى اللغة ، ودور اللغة يبدو متعاظما هنا فى إشكالية الأدب النوبى وذلك فى وضوح وصراحة شديدين لأن الأدب فى جانب منه مرتبط بالمجتمع ارتباطا عضويا عن طريق مادة النص الأدبى أى اللغة ، إذن اللغة هى التى تكسب العمل الأدبى الهوية المستقلة ، ولا تتحقق هذه الغيرية فى ظنى إلا من خلال تباينها ، فهل لنا بعد ذلك أن نعد البيئة بأبعادها مثلا أو عناصر الرواية الأخرى من السمات الفارقة التى تقيم حاجزا واحدا بين روايتين كتابهما من وطن واحد ، ينتميان إلى عرقين ويكتبان بلغة واحدة ؟ أميل إلى أن الفرق الجوهرى لا يكمن إلا فى المادة (اللغة) أداة الخطاب ووسيلة البيان ، إذ الإنسان يفكر باللغة ويعبر بالحروف ، بغض

النظر عما يتشابك من مداخلات مع هذا الهاجس ، من مثل ترجمة أثر أدبى من لغة إلى أخرى ، لأن الفرق هنا واضح ، فالعمل الأدبى المترجم لن ينخلع بالترجمة حرفية كانت أم محورة عن هويته الأصلية ، ويصبح من نسيج اللغة المترجم إليها ، فقط الانتساب بالنقل ، والنقل ليس مبررا للانعتاق عن الأصل ، ومعلوم أن الأدب أو العمل الأدبى عند الترجمة والنقل يتخلى عن كثير يعد من خصوصيات الهوية ــ على الأقل ــ فيما يتصل فى الإحساس باللغة أعنى تذوق اللغة الخاص وكيفية التعامل لها والتعامل معها وتوظيفها فى الترجمة عن المعانى .

إن وسيلة التعبير عن الرؤية وتجسيد المواقف وتنمية الشخصيات من خلال السرد أو الوصف أو التقنيات الأخرى المتعددة للرواية فى روايات كتاب النوبة هى اللغة العربية ، هذه اللغة التى تعمقت دقائق التفاصيل ، ووسعت البناء الدرامى لقصصهم ، و بلورن الأحاسيس ، سمة عامة بل خصيصة مشتركة ، بل دعامة رئيسية وإطار هو لروايات القصصيين المصريين جميعا مع فارق بسيط بين لغة الجميع فصاحة أو تخففا منها ، اللهم إلا فيما يلجأ إليه القاص النوبى أحيانا فى الاستعانة بمفردات نوبية فى بعض الجزئيات لدلالاتها المتنوعة التراثية والصوتية والرمزية والأدائية ، وكسر الرتابة وتكثيف

الحدث ، هذا التوظيف ـ فـــى اعتقـادى ـ لا يخـرج بالروايـات من إطارها العربى التى تعـالج همـوم وقضايـا ومشـاكل قطـاع عريض من أبنـاء الوطـن أو شـريحة منـه إلـى إطـار آخـر ، وطبيعى أن يكون المضمون المعـالج والبيئـة التـى تتحـرك فيـها الشخصيات بمسمياتها منتزعة مـن ذات البيئـة النوبيـة مـن كنـى وألقاب وأسماء نجوع وقـرى وزمامـات .

أضف إلى ذلـك أن كثـيرا مـن سـمات الشـخصية يمكـن أن تكون مشتركة بيـن شـخصيات الروايـات علـى امتـداد خارطـة الوطن ، لا فرق فى ذلك بين كاتب فـى بـر مصـر أو النوبـة إلا ما يعزى للعامل الجيوجغرافى ، لم يبق بعـد ذلـك مـن العنـاصر الفاعلة فى العمل الروائى عمومـاء

ء والرواية النوبية خاصـة إلا البيئـة بأبعادهـا المختلفـة زمانيـة كانت أو مكانية مع كل ما تشتملان عليه مـن متحـرك أو سـاكن ، ناطق أو صامت ، متغـير أو ثـابت ، هـذه البيئـة فـى الروايـة النوبية تعد ممتدة تستغرق مساحة كبيرة بـل كـل المسـاحة أحيانـا من بيئة كتاب العاصمة ، فإذا اختزلنـا الجـزء اليسـير مـن بيئـة الشمال الذى لم يكن متحركا ومؤثرا فـى بيئـة الروايـة النوبيـة ، وجدنا أن زمـان ومكـان الأحـداث والشـخصيات فـى قصـص النوبيين واقعية متطابقة غير متخيلة تفاعل معـها الإنسـان وارتبـط

بها النوبى ، وطبيعى أن تبدأ أحداث الرواية منها ثم تنتهى إليها والعكس صحيح .

هنا نضع أيدينا على الفارق الوحيد المميز لهذه الروايات على غيرها من روايات أبناء الوطن فى الشمال ، إذن هى خصوصية تتمثل فى البيئة المحركة والداعمة لمراحل العمل القصصى صعودا إلى النهاية أو تدرجا فى تناهيها نحو الغاية .

وعندما تؤطر الجهود التى يبذلها طائفة من أبناء النوبة المهتمين وفى مقدمتهم الأستاذ محمد جدكاب وصحبه وتتبلور رؤاهم فى التعريف باللغة النوبية ويتواصل زخم المد والحياة فى إرث الدكتور كباره رحمه الله فى فريدته (كيف نكتب اللغة النوبية) ، وترسخ فى الأذهان صورتها ، ويسهل على الأقلام رسمها ، خاصة بعد أن قعدت وقيدت حروفا ، حتى صارت تكتب فى يسر وسهولة عند نفر قليل جدا من المتخصصين ، وعندما تكتب الرواية النوبية بلغتها ، أو ينقل ما فى الساحة منها إليها ــ وهو حادث الآن ولكن فى بطء ــ فى جهد مواز لتعلمها عندئذ فقط تكون الرواية النوبية قد وجدت قالبا وإطارا وفى مضمون إنسانى بخصوصية نوبية قلبا وفحوى.

وفى دراسة سريعة مستنبطة لبعض ما فى يدى من روايات

كتبها أدباء نوبيون نجد أن : حجاج أدول فى مجموعته "ليالى المسك العتيقة" يصدر فيها عن ثنائية تتبدى فى توظيف الأسطورة والتراث يجمع بينهما خيط دقيق من الواقع ضام لشخصيات المجموعة على تنوعها يكاد جميعها كما فى غيرها من الروايات الأخرى ، يؤكد تعريف الذات وتوصل الهوية وتحاول استيعاب الأزمة ــ على شدتها ــ ومعايشتها ، وتقبل التفاعل مع الطارئ على مضض مستنكف ، تمرد سرعان ما يصطدم بالحقيقة فيغوص فى أعماق الماضى فى جدلية مع الذات تستمرئ تعاطى المفتقد تخيلا وذكرى .

هذه المجموعة وغيرها تحصى الآثار السالبة للتهجير ، وما ترتب عليه ، وما نتج عنه من انفراط العقد ، وانمحاق كل ما هو جميل فى نظر القاص ، واندثار مجموع القيم الذى نشأ عليه وغذت مكوناته .

الهجرة هاجس مفزع يؤرقه دائما هجر الأرض بالجسد ، والروح لا تزال متشبسة بها ، والرحلة إلى الشمال ضياع وذوبان وهلاك .

فى الرحيل إلى ناس النهر ، تتبدى خصوصية البيئة ، "فانا" محور الأحداث وقطبها الذى تدور حوله ، الفتاة الأسطورة ، بنت البيئة التى من مفرداتها "الفاركى" شريان فرعى للنيل يمد

الأرض والإنسان النوبى بالحياة مقامات الأولياء ملاذ العائذين والمستجيرين من تقلبات الأحوال عند البسطاء ، (آمون تو) ، (آمون دجر) قطبى الحياة لا يلتقيان ولا يفترقان (الخير والشر) وهما (ناس النهر" ، ثم (آشا آشرى) عائشة الجميلة ، صيام ... الخ ، حزمة من الخطوط تتعامد على المأساة ، الخارطة فى أقصى طرفها الشمالى نتوء مفزع يلجم النيل ويكبح جماحه أيام الفيضان ويدرأ عن أهل الشمال أضراره ، خزان عملاق يحجز الماء المتدفق فى ثورة ، فيهب الشمال بالازدهار ، ثم يرتد إلى الخلف غولا كاسرا يقتطع فى أحشائه جزءاً من أرض الجنوب بلاد النوبة ، لن يعود أبدا ، ويقذف بأهلها إلى المتاهات ، تتجدد المأساة كلما ارتفع الخزان قامة بالتعلية ، فتتقلع قرية نوبية من جذروها ويتبعثر أهلا .

هذه المنطلقات الرئيسة يعتمدها الروائى حجاج أدول ويوظفها مع واقع مرفود بالأسطورة الممزوجة بحكى الجدات ، وطقوس المناسبات الدينية والاجتماعية وموروث ثقافى أكثر ما يعتمد على ما تلقفه النوبى شفاهة من أجيال تعاطته عبر أزمنة متقادمة حتى وصل إلى أذنه واستقر فى ذهنه ، يخلص منها إلى إنزواء الأمل وانقطاع حبل الماضى المشرق وانحساره عن التواصل إلى حاضر بئيس تنفصم عراه وينتهى مع آخر شهقة

لآشار أشرى التى تؤثر ناس النهر ملائكة كانوا أم شياطين على ناس البر الذين ألفوا التفريط وأدمنوا عدم الوفاء ، ثم خلفت وراءها مأتما مقيما فى قلوب أهلها ، يحسم الروائى حجاج أدول النهاية بغرق أشار أشرى[١] (عائشة الجميلة) معادل النوبة القديمة ، للدلالة على انبتات الصلة بين القيم المثلى التى كان يعتد بها وما يتسرب إليها بعد الهجرة من إحباطات ، ناس النهر تعبير عن حجب الإرث وحرمان الوارث منه .

وفى (أديلاجدتى)[٢] وهى واحدة من ثلاث قصص قصيرة ضمتها (ليالى) أدول ، يطرح فيها الكاتب فكرة التمرد على أعراف المجتمع النوبى ، وكسر تقاليده الموروثة ، يتمثل كل ذلك فى ابن النوبة الذى يتزوج من (جورمانية) غريبة من الشمال ، وينجب منها محمدا الذى يعيش صراعا حاد يتمثل فى نزوعه إلى عرقين مختلفين وأصلين فى عرف أهل النوبة لا يلتقيان أو هكذا نفخ الكبار ــ كما ؟؟؟ ــ فى آذان الأجيال المتتابعة ، الأحداث تتحرك وتدور فى أرض المهجر ، إلا أن البيئة المتحكمة حقيقية فى تنامى الصراع ومسارب القصة هى

---

[١] ناس النهر ، حجاج أدول ، صـ ١٠٤ .

[٢] ليالى المسك العتيقة ، حجاج أ دول ، صـ ٣٢ .

(الجدة) ، إذا عدوناها مكونا اعتباريا أصيلا للبيئة بما تمثله ، فهى همزة الوصل بين القديم والجديد الذى لم تألفه بعد ولم تنسجم معه ولا تقبله ، حتى كادت عروقها تجف تحت جلدها من الحزن فتتكفئ على ذاتها رافضة لكل شىء، وجدت نفسها نتبة غريبة قامت فى الهواء بلا ساق ولا جذور ، تستمطر حفيدها (الجيل الثانى) المهجن نتاج الغربة والانعتاق عن الأصل ، ابن الجورمانية تستمطره اللعنات بسبب وبدون سبب ، وتصب عليه حنقها وجام غضبها ، فهو عندها الجديد الطارئ والمحدث المرفوض والغربة التى تستشعرها ، وهو نبت الأرض التى لم تألفها ومن باب أولى الحياة الجديدة برمتها .

إنه الصدام الماثل فى عينيها بين ما هو قديم موروث ينسحب من الحياة فى عجل ، وجديد يزحف بقوة ويتسرب إلى واقع نكد تسخر منه الجدة ولا تقبل معايشته ، ولذا ترضى بالسجن الاختيارى الذى بنته لنفسها إلى أن يوافيها أجلها ، وبموتها يعلن الكاتب كما فى (الرحيل إلى ناس النهر) انقطاع الصلة بين ماض جميل وحاضر لا يؤذن بخير (أديلا جدتى) مع السلامة .

وإذا كان حجاج أدول قد طرح فكرة مفادها أن زواج النوبى من غير جنسه خرق للعرف وخروج عن التقاليد العشائرية

ومجتمع النوبة القبلى لا يسمح به ، وفى الوقت نفسه بسط إشكالية الاغتراب المزدوج النوبى بالهجرة إلى الشمال ، ثم الاقتران بجورمانية ، إغتراب خارجي وداخلى ، ظاهرى ونفسى فى إطار من التآلف الحذر بين حدى القضية وطرفى المعادلة ، غاضا النظر عن قانون صارم ، وحكم مبرم لا يمكن نقضه ، لأنه موروث رئيس من جملة الأعراف والتقاليد السياجية ، تمرس خلفها الإنسان النوبى عهدا ليس بالقصيد يتمثل فى أن الزواج بأجنبية (جورمانية) يعد موتاً من يقدم عليه يخلع من القبيلة ويصير نسيا منسيا ، فإن الكاتب حسن نور يطرح فى المقابل فى روايته : "بين النهر والجبل" فكرة أكثر جرأة ، وسلوكا أشد تمردا ، لا يعد مقبولا بحال من الأحوال على الأقل فى البيئة الأصلية المحافظة والمتزمتة جدا ، ناهيك عن الاعتراف به إلا إذا عددنا ذلك نوعا من الحدس استبق به الروائى واقعا معاشا إلى معطيات مستقبل أضمر فى نفسه كثيرا من المفارقات .

إن ما طرحه حسن فى راويته (بين النهر والجبل) ضمن ما تناول ، فكرة أن تتزوج الفتاة النوبية من أجنبى ــ معتاد أهل النوبة أن يصفوا من ليس نوبيا بالأجنبى ــ (جورباتى) ، ليكون النتاج مقرفا كما هو فى قاموس الأنساب عند العرب (عبدون)

يكسر هذا الطوق المحكم ويعرض مبادرا ابنته (سامحة)[1] على (الغريب) هكذا الاسم منقول من الصفة وليس له اسم يعين به ، لم يكن الكاتب متعصبا كما هو أكثر أهل النوبة ، ولا منغلقا يحشر نفسه فى زقاق العرف الضيق ، لكنه يظهر إمكانية تقبل الغير ومعايشته ، بمعنى آخر هو نوع من التنازلات الكثيرة التى قدمها النوبى عبر المسيرة الطويلة إلى ما بعد التهجير ، وهذه القضية بالذات حاضرة فى كل رواية نوبية تقريبا ، وهاجس يؤرق ، وإن لم تكن محورية فهى على الأقل تنبثق من ثنايا الأحداث فى ومضات مؤثرة على مجرياتها .

الكاتب حسن نور يمهد بهذا ــ فى الوقت نفسه ــ بحاسة الأديب أرضية المجتمع ويهيئها إلى ما يمكن أن يحدث مع الزمن ــ والأيام حبلى بالمفاجآت ــ والروائى المبدع يستشرف الغد ويتوقع المتخيل وينظر من كوة خاصة إلى المستقبل أرتأى المتوقع من اختلاط وتداخل ، والتخلى عن كثير مما كان يتمسك به وارتكاب ما يخالفه يعد عارا وعيبا لا يمحوهما الزمن ، أراد أن يعد هذا المجتمع لتقبل ما يمكن أن ينحطم من الموروث ، كذلك التنبيه على أن ما سيقع على الرأس من مطارق الحدثان

---

[1] بين النهر والجبل ، حسن نور ، صـ ٨٢ ــ ٨٣ .

ربما أشد وأكثر إيلاما مما سبق فبنى لحمة الرواية على هذه القضية وجعل متشعباتها روافد تنمى الصراع وتزكيه ، حتى تصل الرواية بتضافر عناصرها إلى النهاية التى خطط لها الكاتب مسبقا .

ويلحظ هنا على رواية "بين النهر والجبل" عنوانها بدلالاتها الثرية ورمزيته التى تشف عن كثير من معطياته ، وتتم بهذا التقابل عن فحوى الرواية ، ذلك بأن الناس هم أولا سكان ما بين النهر والجبل ، وهذا حدث واقعى موثق لطبيعة المكان فى الرواية والبيئة المؤطرة للأحداث التى تجرى على سطحها فإذا تركنا هذا المفهوم وغادرناه وانتقلنا إلى دلالة أخرى سنجد النهر رمز العطاء والحياة حتى قبل (مصر هبة النيل) يوحى بحياة النوبى قبل التهجير فى سلام ورغيد آمن وطمأنينة وتواصل والجبل رمز القسوة ، والواقع المعاش فى المهجر ، والمعاناة والهواجس والخوف من الغد وما يأتى به وأيا ما كانت المعطيات والمفاهيم فإن المضمون المعالج يسترفد شقى العنوان ويقوم عليهما .

وفى (دوامات الشمال) يجسد الكاتب حسن نور حياة إنسان تضافرت الظروف ضده ، وألقته فى معترك الحياة وهو ما زال غصن الإهاب لين العريكة لم تره إلا وجهها العابس ، تلقفته

بدواماتيا العاتية فيحاول الفرار ولكنـــيا تـترصده ، بـدأت القصـــة ببطلها يجرى مفزوعا لا يكـــاد يلتقـط أنفاســه حتـــى يـسرع إلـــى مجهول مكـــدودا ضائعـــا ، يحـــاول القفـــز علـــى نتـــوءات الحيـــاة ويغض النظر عن تجاعيدهـــا ، ولكنـــه لا يفلـــت مـــن المطـــاردة ، فالعدو والقفز لازمتان لا تفارقانه مـــع ملاحظـــة أن الأحـــداث فـــى معظميا تجرى فى الشمال والقـــاهرة ، ويصـــل مدهـــا إلـــى بيئـــة البطل موجا هائجا لا يحمل فى طياتـــه إلا كســـوف الآمـــال وبـــؤس الواقع .

ذو النـــون إلبطـــل وحشـــد الشـــخصيات الرئيســـة والثانويـــة والمسطحة والفاعلة أغلبيا تنتمى إلـــى البيئـــة الأم انتقلـــت بتقاليدهـــا وعاداتيا منذ زمن إلى العاصمة لتحتل موقعـــيا فـــى قـــاع المجتمـــع مثل أكثر أفراده ، تتفاعل لدفع الحدث ورفـــده بمقومـــات التنـــامى ، الذى يتمحور ثم يتحرك صعودا ، ليرتد فجـــأة إلـــى نقطـــة ســـبقت يتخذها الحدث دعامة جديـــدة لمـــد آخـــر ، وهكـــذا تظـــل الروايـــة مندفعة بالأحداث إلى الأمام ثم تعـــود فـــى انســـحابية إلـــى الـــوراء تتطلق إلى الحاضر الذى تنتمى إلى تفاصيلـــه الدقيقـــة إلـــى جزئيـــة سابقة مضـــت .

هذا الأسلوب التبادلى لسرد الأحـــداث يســـاعد علـــى التوضيـــح والتكثيف والإضافة والبنـــاء ، علـــى أنـــه مـــن الممكـــن أن نضـــع

استدعاء الماضى والتذكـــر ودلالاتـــهما وفقراتـــها التعبيريـــة التـــى تعترض المد الطبيعى لتسلسل أحداث الرواية بيـــن قوســـين تقـــترب المساحة بينهما وتضيق أحيانا إلـــى صفحـــة أو صفحـــة ونصـــف ، أو تتسع إلى عـــدة صفحـــات حســـبما يســـتوعب بينـــهما وعلاقتـــه بالحدث الآتى ودلالاته وما يرمز إليه ، ولولا براعـــة القـــاص فـــى توظيف هذا النمط من الأسلوب وتمكنـــه مـــن إيجـــاد الصلـــة بيـــن خطين متعاكسين والربط المحكـــم بيـــن (الارتـــدادات والانطلاقـــات) بين هذا الكسر المتعمد لتسلســـل الروايـــة وبيـــن تناميـــها لأصيـــب النسيج القصصى بالترهل والانفـــراط ولكـــن دقـــة العـــرض وفنيـــة انسحابية التفاصيل إلى الـــوراء لإضفـــاء الإضـــاءة الكاشـــفة علـــى مجريات الأحدث ، ثم إيجاد العلاقـــة بيـــن خطيـــن نـــافرين أخـــرج الرواية من دائرة الإحباط الفنى إلى نوعيـــة مـــن الحبكـــة أســـهمت فى سبك مكونات الرواية الفنية بعناصرها فى إطـــار بـــانٍ .

يهتز ارتباط البطـــل وانتمـــاؤه إلـــى الأرض باستشـــعاره الظلـــم وإحساسه بالاغتراب فى العاصمـــة يـــدور فـــى أزقتـــها وحواريـــها باحثا عن الاســـتقرار والمخـــرج ، تظـــل بطحـــاء القـــاهرة قطـــب الرحى فى القصة ومركزها الجـــاذب لا الطـــارد ، دائـــرة الدوامـــة التى دوخت البطل ، ولا تزال تتســـع ، وتتكـــالب عليـــه المصـــائب وتتصارع فى أعماقه الأحاسيس ، لتطفو علـــى الســـطح ، ويـــترجم

إلى ثورة وتمرد ، حزمة الأعـــراف والمواضعـــات لا يشـــذ عنـــها أحد ، وطقوس متوارثة فى مواقف بعينها تزخـــم بمـــد زاخـــر مـــن المعتقدات الدينية والأسطورية والآنية ، مـــع إحســـاس كـــامن فـــى اللاشعور تستثيره نظرة الاستخفاف مـــن الآخريـــن ، تتحـــول إلـــى سباب صريح ما هذا ؟ مـــع بربـــرى ... كلـــب حقـــير [١] تســـتفذه النخوة ويدخـــل فـــى معركـــة لا يـــهم أن يكـــون هـــو الخاســـر أو المنتصر المهم أن يقاوم ويدافع ويثبت ذاته ، إثبـــات الـــذات وتـــأكيد الهويـــة يدفعانـــه إلـــى أن يمقـــت التحيـــيز والعنصريـــة ، خاصـــة والبطل طموح يستشرف غدا أفضـــل ويمنـــى النفـــس بـــأن يكـــون شيئا مذكـــورا ، يحـــب العلـــم ولكـــن الظـــروف حـــالت بينـــهما ، عبد الدايم كشكول الثقافـــة أغـــراه بـــها فقـــرأ فـــى نـــهم واتســـعت مداركه ، استوعب الحيـــاة وقوانينـــها ، وعـــرف منـــاهج السياســـة والاقتصـــاد ، ظلـــم الحـــاكم وضيـــاع حقـــوق الرعيـــة ، وزيـــف الشعارات ، دس أنفه فى كل شئ ، ولكن الواقـــع يتـــأبى أن يكـــون نموذجا للعدل الذى يحلم به ؟ مـــن أن يكـــون مـــرآة يعكـــس عليـــها مفاهيمه فيزداد ضيقا بالحياة ، وتبرمـــا بـــل تمـــردا وثـــورة ، مـــن قبل صدم بوفاة أبيه فى عز عافيته ، اسودت الدنيا فـــى عينيـــه كـــاد يشك فى الحياة وجدواها ، يتساءل ذو النون عـــن المـــوت وفلســـفته

---

[١] دوامات الشمال ، حسن نور ، صـــ ٤ .

سؤال عفوى يتردد على لسانه فى ساعات الضنك والضيق ، عندما تنعقد دائرة محكمة لدوامة لا تنتهى بل تبلغ ذروتها "لماذا نستسلم هكذا للموت دون مقاومة ؟ أهو مخيف إلى هذا الحد قوى لا يقهر ؟ .

وفى موضع آخر : "ألهذا الحد يبلغ الهوان بأعظم مخلوق على وجه الأرض ، يموت فيتساوى بالتراب ، لماذا يكون الموت ؟ ولماذا يموت ؟"

الإحساس بالفناء يستغرق ذى النون البطل ويسترجع طقوس ما بعد الموت فى تتبع دقيق ومفصل للحقائق ؛ وكل مفردات هذه الطقوس من لحظة الموت حتى الانتهاء بيوم الرحمة ثالث أيام الوفاة وما يعقب هذه المراسيم من خصوصيات تتميز بها النوبة فى هذه المواقف يدور الكاتب بكاميرا لاقطة شديدة الحساسية ، ترصد التقاليد ، في حيزها الضيق قطاع من النوبة عاشت فى العاصمة طلبا للرزق الواسع وظن ذى النون فى مهجر أهل النوبة ، والأوسع الوطن بأكمله ، حجرة تلقى فى صفحة ماء الحياة الآسن ، فتنعقد سريعا عشرات الدوائر تغرى غيرها وتنتهى إلى دوامة مذهلة .

يقوم القاص حسن نور بتوظيف العنصر التراثى بدلالاته اللامتناهية والرمزية فى توليد المعانى التى تتداعى من اللحن

الجنائزى للتعديد ، والأغانى تعبيرا عن الحزن العميق الذى استشعره بفقد أبيه ، ثم ضياعه وسط زحام العاصمة ، ثم تبدد الأمانى باستحالة تحقيقها (لا واسطة له) ، سواء آماله الخاصة فى أن يجد عملا يقتات منه ، أو آمال محيطة فى استقرار الوضع السياسى للبلد ، يسجل ما عاصره من الأمور السياسية وأحوالها وتقلباتها ومؤامرتها ودور التنظيمات والأحزاب فى عدم استقرار البلاد وانقلابات العكسر ومكائده فى الأخذ بالشبهة والاعتقال وتغييب الرأى الآخر واحتكار السلطة ، وبشاعة التعذيب والانحدار الخلقى لزبانيته ، يؤخذ ذو النون إلى المعتقل لمجرد أنه صديق عبد الدايم التنظيمى النشط ويزج بهما مع كل التيارات الفكرية والسياسية فى السجون ، ينال ذو النون حظه من التعذيب بالضرب والتقييد وإطالة أمد التحقيق وتلفيق التهم والإدانة بالاعتراف الكاذب على جريمة لم يرتكبها رماه حظه العاثر فى طريق هذه الهوجة البوليسية ، كان الكرباج ينغرس فى ظهرى ، ويمحو جلدى ... سال دمى ، أغرق ساقى، غبت عن الوعى فلم أحس بشئ، لما أفقت جاءنى أحد الضباط ... قال : لن يفيدك العناد ، والأفضل أن تعترف على صاحبك وتوقع على الورقة التى قرأتها حتى نتركك تذهب لحال

سبيلك ، هاه ... ستوقع ... أليس كذلك ؟[١]

يفضح الكاتب أساليب البطش والترهيب الغاشم ، يقول الكاتب على لسان الضابط بعد أن أصر البطل على عدم معرفته بشئ مما يسأل عنه : "والله ستموت ولن تعرف أمك لك طريقا" دلالات شتى تنبثق من هذه الجملة "أحسست بكل جزء فى جسدى متورما ، كدت أقع وأتمدد على بلاط الغرفة... أظلمت الدنيا حولى ، ولم أستطع أن أميز بين الأشياء ، لم أعد أحس بشئ، هاتوه ... سمعت الصوت آتيا من الخارج ... سحبونى وراءهم ... وجدتنى أقف أمامه مرة ثانية"[٢] ، وتنطلق الأسئلة كالرصاص من فمه ، ماذا تعرف عن عبد الدايم ؟ والمنشورات؟ أين يطبعها ... الخ .

والبرئ يصر على عدم معرفته شيئا ، ويستقوى على الموقف الرهيب باستدعاء بعض المقولات التى حفظها ووعتها ذاكرته تقفز من عقله الباطن ماثلة أمام عينيه : "أنت الذى تصنع نفسك وليس الآخرون وعباس العقاد علم نفسه ... بين

---

[١] رواية دوامات الشمال ، حسن نور ، صـ ١٧٤ .

[٢] السابق ، صـ ١٧٥ .

الموت والحياة لحظة والموت أفضل من الحياة الذليلة" [١] ، عامل مساعد على الصمود في لحظات يكون ذو النون فيها أقرب إلى الانهيار منه إلى المواجهة والتشبث بالحياة .

يأتى صوت الضابط مدويا : "ألن رأسك ولا تركبها" ، لم أجد غير الصمت ألوذ به ... احتد ... احمرت عيناه وانتفخت عروق رقبته وهو يزعق : "تكلم يا شرموط" .

يتخذ الكاتب الوصف الدقيق للشخصية مستندا لتوضيح أبعادها الظاهرة والباطنة ، وكذلك في تحديد الملامح النفسية لهذه الشخصية المؤهلة بطبيعتها لدورها ، والمدربة جيدا على القيام بوظيفتها حتى غدت الشخصية من خلال الوصف وحشا كاسرا يتهيأ لافتراس ضحيته .

وفي الوقت نفسه يختزن الروائي معاناة الباحث في تقويم هذه الشخصية وتحليل أغوارها ، وحدس الانتماء الخلقي والعرقي والبيئي المكون لذراتها وخلاياها في جملة واحدة صدرت من الضابط "تكلم يا شرموط" ويترك للقارئ مساحة شاسعة للتفكير والاستدلال والاستنتاج لما يمكن أن يكون من عطاءات هذا الحوار الذى دار بين رجل البوليس والضحية .

---

[١] السابق ، صـ ١٧٦ .

على كل حال (مصيبة أهون من أختها) تتقذه حمى ألمت به في المعتقل من أسره ، ألقى به خارجه مخافة أن يلفظ أنفاسه بين أيديهم وخيرا أن يموت بعيدا عنهم ، يعود ذو النون إلى أهله يجتمعون حوله يقرعونه تأنيبا على فعلته : "مالك والسياسة يا ولدى ... ليس لنا فيها والله ... ليس وراءها غير الخراب وهذه هى النتيجة ... العسكر وما أدراك ما العسكر ؟" [١]

فى خاتمة الرواية يخلص الكاتب إلى مسلمات ونتيجة مفادها أن النظام استطاع بذكاء خبيث صرف أنظار الناس عنه بزرع الانهزامية المزهدة فى ممارسة السياسة ، ورعى ذلك الزرع زمنا طويلا ، وتعهده حتى آتى ثماره نكوصا وانصرافا من الشعب عنها وعنه ليحتكر السلطة وشئون الأمة فى غيبة منها ، يترجم عن ذلك التغييب ما يتردد على لسان ناس النجع : "مالك والسياسة يا ولدى ... ليس لنا فيها والله..."[٢] يؤيد ذلك الاستنتاج عودة ذى النون إلى موطنه الأصلى بين أمه وأخواته خاوى الوفاض كاسف البال محبطا ، أدار ظهره لدوامات الشمال وعقابيلها وإن كان لا يزال يتجرع آراءه فى السياسة

---

[١] دوامات الشمال ، صـ ١٧٧ .

[٢] السابق ، صـ ١٧٧ .

ويتمسك بـها .

فى الرواية : الأحداث ترفد الشـخصيات بمزيـد مـن التفـاعل والحيوية والتنامى واستكفاه الملامـح الجسـدية والنفسـية ، وترسـم أبعادها وتستجلى أغوارها ، والبيئة بأبعادهـا المتنوعـة ومكوناتـها وثيقة العلاقة بـالأحداث والشـخصيات ، رحبـة المسـاحة ممتـدة الزمن ، تستغرق مسطح عمر البطل (ذى النـون) ومـا جـرى لـه وما عاصره وعايشـه سـواء فـى البيئـة الخاصـة التـى تتجلـى عناصرها فى مفردات الحياة ومشتملاتها التـى انتقـل بـها النوبـى من قريته إلى قلب العاصمة أو محيط البيئـة العـام فـى القـاهرة ، تتمازج هذه المكونات والمفردات فى أسـلوب يعتمـد علـى تقنيـة فنية خاصة تعتمد الحقـائق وتنـأى عـن التمويـه فـى انسـحابية الحـدث إلـى المـاضى فجـأة متقاطعـا مـع التسلسـل المنطقـى التصاعدى للأحداث عمومـا .

تم الانطلاق مرة أخرى إلى الأمـام مـن نقطـة تمـاس متولـد عنها فكرة آنية فى شبه دوائر تكاد تتكـامل وتنغلـق عنـد أطرافـها إلا أنها لا تتلامس فتعود أدراجها لخلـق دائـرة أخـرى بـالتوازى مع سابقتها تكون بالضرورة أوسع من التى قبلـها وأكـبر وتتجمـع هذه الدوائـر المولـدة والمولـدة لترسـم دوامـة عاتيـة تسـتغرق الرواية بتفاصيلها الدقيقـة وجزئياتـها المتراكبـة ، وهـذه النمـاذج

الارتدادية إن صح التعبير لم تؤثر سلبا على البناء الدرامى للرواية أو الحبكة ، بل ساعدت على النقيض من ذلك فى التضام والتلاحم العضوى بين عرى العمل حتى بلغ غايته ، ومقومات هذه الرواية هى نفسها المقومات الفنية لأى رواية أخرى إلا فيما أشارت إليه من أسلوب اتبعه الكاتب فى السرد مع خصوصية تذكر لها الرواية مع عموم إنسانيتها تتمثل فى طرح أنماط من حيوات النوبى بتقاليده وعاداته ربما لا يشاركه فيها أحد حتى الآن .

وتجلت ثقافة الكاتب المتنوعة فى أثناء السرد وحوارات البطل مع غيره من الشخصيات الأخرى ، وأحيانا كانت آراؤه تأتى على شكل فقرات مقروءة من كتاب يتوارى الكاتب خلف شخصية ما ويتخفى وراءها ويلقيها بما يشبه الخطاب العام أو كالحجر الذى يلقى فى خضم دوامة ليزيد استعارها وفورتها وهيجانها ، هذه التدخلات مثلت خيطا نافرا فى النسيج المتناغم للرواية بأشكاله وألوانه وإن جاءت فى سياق محادثة بين اثنين (انظر الرواية صفحة ٣٧ ، وصفحة ١٢٨) .

لا يمكن أن يقال فى الرواية إن الراوى اتصف بالأمانة فى عرض الوقائع والأحداث والشخصيات ذلك لأن قدرا كبيرا منها فى أحيان كثيرة يعتمد على التخيل والتصور والاختلاق أو على

الإسقاط عند توظيف أحداث ووقائع تاريخية مدونة مع الشخصيات الحقيقية الفاعلة لذلك التاريخ على أحداث معاصرة أو معايشة قصد التمويه والبوح بالنقد وتحليل الواقع وحصر سلبياته وتقويم مجرياته وتجسيد كبوات القائمين على الأمر ، وإذا كان الأمر كذلك فإن الروائى حسن نور فى رواية (دوامات الشمال) اتصف بقدر كبير من الواقعية إن لم تكن الرواية واقعية كلها ، وإن كان الصدق فى نقل الوقائع كما هى إلى العمل الأدبى يصطدم بآراء بعض النقاد الذين يقللون من شأن فنية التعامل بالصدق المطابق لما هو حادث فى الواقع فى العمل الإبداعى لأنه ينتقص من قيمته ، فإن رواية (دوامات الشمال) قد نأت بنفسها عن هذا المأخذ مع أنها تعاملت مع واقع حقيقى يكاد ينقل نقلا إلى صفحات الرواية وثناياها ولعل المرجع فى ذلك هو السرد الفنى المتقن فى إطار الحبكة الدرامية واللغة الموظفة فى طواعية لتصوير مجريات الرواية والأسلوب المشار إليه سابقا فى طريقة العرض وعلى سبيل المثال :

من البيئة : عابدين ــ دهميت ــ قورته ، الشلال ــ البلاقسة ــ شارع شركس ... الخ .

ومن الشخصيات : أولا البطل : (ذو النون) علم نوبى لا

يجهله متقف رمز لـــه دلالاتـــه العميقـــة ومعطياتـــه وإشـــاراته ، إذا تركنا هذه الشخصية نجد غيرها : (عم حســـانين) شـــخصية حقيقيـــة عطار فى الموسكى مرجع أهل النوبة فـــى العطـــارة ومـــا إليـــها ، (جعلصة) المعلمة معروفة ومشهورة فى شـــارع البلاقســـة بعـــابدين من أعلام المنطقة رأيتها تديـــر كشـــكها لتعيـــش منـــه ، توفاهـــا الله الآن ، (سيد حنفى الدخـــاخنى) ، و (بحبـــح)[١] وغـــيرهم كثـــير إلا أن الكاتب استطاع أن يضفى على كل ذلك ظلالا مـــن وشـــى قلمـــه ويسكب عليها فنية من تفاعله وانتقل بـــها إلـــى بوتقـــه ومعملـــه ثـــم أعادها إلى الواقع فى سبيكة جديدة وحيوية دافعـــة فـــى إطـــار مـــن الخلق الفنى وإعادة صياغة الواقع فى ســـياق خـــاص يختلـــف كليـــة عما يتراءى للإنسان العادى علـــى الطبيعـــة .

أما (زينب أبو رتى)[٢] فى ليـــالى أدول ، فـــإرث ثقيـــل ، قـــدر كل جيل أن يلحق بـــه مـــن شـــططها الكثـــير ، وأن يصـــاب مـــن فكرها وشرها بنصيب ، عدتها كتـــاب (شـــمس المعـــارف الكـــبرى) وعقدتها وجه قبيح مقـــزز ، وشـــكل قمـــى أزهـــد الرجـــال فيـــها ، فتحالفت مع الشيطان ، وظيفتها الإفساد والإرهـــاب ، تصـــب جـــام

---

[١] رواية دومات الشمال ، صـ ١٢٨ ــ ١٢٩ .

[٢] ليالى المسك العتيقة ، حجاج أدول ، صـ ٧١ .

غضبها على أهل القرية ، والانتقام لنفسها ولعنوسة أدركتها منذ سن الزواج ورافقتها حتى استغرقت عمرها ، مهمتها (العمل الردئ) وعقابيل السحر بمعاونة الجن (كاكوكى) الملعون يعقد معها حلفا وصفقة ويبايعها على عمل الشر وإلحاق الأذى بأهلها (أبورتى) يعنى الرماد ، وعقيدة النوبى أن الرماد مأوى الشياطين وملجؤهم المفضل ، ولذا يحظر على الجميع أن يطأوا الرماد أو يسيروا عليه خاصة الأطفال ، ولكن يستعان بعجينة (خليطه بالماء) فى تلطيخ الوجه والشعر استفزازا وإعلانا لمشاعر الحزن العميق عند فقد عزيز ، باعت (زينب أبورتى) محور الأحداث فى القصة التى عنونت باسمها من مجموعة (ليالى المسك العتيقة) وهى بطلتها كذلك الشخصية الرئيسية على مدارها باعت روحها وجسدها للشيطان ، وتوظيف الشيطان فى الأعمار الأدبية قديم وفى أدبنا العربى مشهور ، ومعروف دور الجن فى الشعر الجاهلى ، ولا داعى للاستطراد ــ من أراد المزيد يطالع المراجع التى اهتمت برصد الشعر الجاهلى ــ تاريخه وفنونه ــ كذلك فى الأعمال الأدبية الأخرى، ولكن أهم ما يلفت النظر هنا أن بين هذه القصة وما كتبه جوته[1] فى (فاوست) تلاق مع فارق جوهرى بين فاوست

---

[1] فى الأدب المقارن ، زهران محمد حبر ، صـ ١٨٨ .

وزينب أبو رتى ، الأخير شر كلها عجينة من حقد وكراهية وضغائن ، عمرها على امتداده لم يتسع إلا للسوء والإفساد ، دفعت حياتها فى أبشع صورة ثمنا لخزلان (كاكوكى) لها ، بينما (فاوست) شخصية طيبة المعدن يشوبها ضعف ، يتغلب عليه هذا الضعف البشرى ردها من الزمن ، إلا أن ضلال جسده لا يتجاوزه إلى روحه ، ولذا ينقذ من الشيطان فى آخر لحظة ، كذلك مسرحية (عبد الشيطان) لمحمد فريد أبى حديد ، على المستوى نفسه من فكرة سابقتيها ، حيث يعقد (طوبوز) اتفاقا مع الشيطان يمنحه بموجبه خاتما به يتمكن من تحقيق لحل رغباته ، يسدى له النصح ويرشده[1] ، وفى نهاية المطاف يتخلى الشيطان عنه ويغادره مقهقها يسخر منه ويزدريه ، ويستغرق الخاتم كل جسد طوبوز فيصير شيطانا لا أمل فيه .

قصة (زينب أو رتى) طرح يستبطن هذه الشخصية الحاقدة ويستجلى أغوارها ويفضح أدواتها ، ويعطل تلك الأدوات ويحطمها ، ويقى أهل القرية إرهابها ، فقد أقسمت أن تنتقم من الناس ، وتبدأ بشيخ الخفر فتربطه (أى تعجزه من أن يمارس حقوقه الشرعية فى معاشرة زوجته) ، ثم تربط كل رجال

---

(١) مجلة فصول ، عدد الأدب المقارن ، مقال مصطفى ماهر ، صـ ١٣٨ .

القرية، يرهبها الجميع ويمقتوها ، تعيش في معزل من أهل القرية على قرن جبل محاطة بكل ما هو مرعب وبشع ومخيف، تلقى الفزع فى قلوب الناس ، تحيل القرية إلى خراب يطول كل أنحائها ، أناسا وحيوانات وجوامد ، تصاب كل مفردات الطبيعة بخلل فتتحول إلى مصائب تتربص بالقرية أو تنقلب سحنتها ويلا ، فيهجرون القرية بحثا عن ملاذ آمن ، بعيدا عن أبورتى، ينقض الشيطان عهده معها ، تفقد سيطرتها عليه ، تذهب سطوتها ، وتضمحل قوتها ، تتضاءل تتكور على نفسها ، يتناقص حجمها ، تأكل فى نفسها ، تموت منزوية وحدية فى معزل يلتهمها وحش كاسر ، فتتقشع الغمة ويفسد السحر ويبطل، يعود كل شئ فى القرية إلى ما كان عليه ، لكن الكابوس يظل يطارد أهل القرية ، ولن ينجلى لأن الباب لا يزال مفتوحا لمن يقع الكتاب النجس فى يده أن يلجه ثانية إلى دنيا الإرهاب والسحر ، وهذه قصة يميزها النهاية التى لم تضع أوزارها بعد.

فى هذه المجموعة عموما والتى تضم إلى جانب (زينب أبورتى) كلا من (الرحيل إلى ناس النهر) وقد تناولناها من قبل، و(أديلا جدتى) كذلك أشرنا إليها من قبل ، يتخذ الكاتب فيها التراث دعامة فى بناء قصصه الدرامى وإحكام حبكتها ،

ومعلوم أن عناصر بناء الرواية تتشكل فى مفهوم الروائى وفق المضمون والغاية من روايته عبر التقنيات الفنية الأخرى المتعددة التى يستعين بها الكاتب لإبراز قضاياه وتجسيد مشاكل مجتمعه إلى جانب وسيلتين هما فى غاية الأهمية فى هذا العمل: النص والشخصية .

ويلاحظ فيما كتبه محمد خليل قاسم خاصة والكتاب النوبيون للرواية عموما المزج فى كتاباتهم بين أنماط عدة للشخصية منها التراثية الحقيقية : الشيخ (شبيكة الولى) فى الكشر الأول ، ومنها الشخصية ذات الأبعاد التراثية والتاريخية : (هابى) اله النيل عند أدول كذلك منها الأسطورية المتخيلة مثل : (آمون تو) ، (آمون دجر) فى الكشر أيضا ، ومنها الواقعية الحقيقية المعاصرة كما فى (دوامات الشمال) لحسن نور .

هذا الصنيع فى التعامل مع الشخصية وتوظيفها يؤدى إلى حيوية الدور المنوط بالشخص أداؤه كذلك يؤدى إلى التفاعل الإيجابى بين الشخصيات جميعها إذ إن عصب العمل الروائى يتمثل فى الحدث والشخصية والنص ، وإذا كنا قد نوهنا بأهمية خاصة التراثى منه ، لأن الكاتب يوظف النص التراثى بدلالاته المتعددة ، وتعدد دلالات النص يعد من أهم المقومات الفنية التى تؤدى إلى حركية النص خاصة أن هذا التعدد للدلالات والمعانى

يعطى النص حركيـــة علـــى مســـتوى المعنـــى ، لأن المعنـــى فـــى النص المتحرك يكون دائما فى حالة تغـــير مســـتمر[١] .

وقد شاع الاتكاء على النصوص الشعبية فـــى قصـــص روائيـــى النوبة ، بل يعد ذلك التوظيف ملمحا رئيسيا وقاســـما مشـــتركا بيـــن كل الروايات أو معظمها على الأقل ، هذه النصـــوص التـــى تتمثـــل فى الأغانى والمواويل ، وبقـــدر مـــا يكـــون الكـــاتب موفقـــا فـــى استدعاء النص التراثى فى مكانـــه المناســـب مـــن العمـــل ، يكـــون ذلك النص أكثر دلالة وأعمق أثرا ، وأكمـــل فنيـــة وأوثـــق علاقـــة بالعمل ككـــل ، إشـــعاعه يتضـــافر مـــع الرؤيـــة الجامعـــة لأبعـــاد الرواية، وسياقها العام وبنائها الهندسى فـــى تكـــامل عضـــوى بيـــن الشكل والمضمون ، والإطـــار والفحـــوى .

ولقد شكل ذلك التوظيف اتجاها فنيا بارزا ومشـــتركا فـــى بنـــاء الروايات النوبية ، ومما يلحظ هنا فيما يتصل بلغـــة تلـــك الروايـــات أنها إذا تضمنت سطرا شعريا ، غالبـــا مـــا يكـــون باللغـــة النوبيـــة يجتهد الكاتب فى إيداعه حروفا عربية فيرســـمه علـــى ذلـــك النمـــط الذى يقرؤه غير النوبى فلا يفهم له معنـــى ، ممـــا يضطـــر القـــاص إلى أن يعقبه بترجمة عربية يفقد معـــها الســـطر الشـــعرى جرســـه

---

[١] العناصر التراثية فى الرواية العربية فى مصر ، مراد مبروك ، صـ ١٤٥ .

وموسيقاه ووقعه وربما يتخلى عن كثير من الإيحاءات التى لا يملكها إلا النص فى لغته النوبية ، لأن هذه الإيحاءات ترفد المعانى ثراء ووضوحا وعمقا ، وعدم فهم النص المدون باللغة النوبية فى هذه الروايات ليس مقصورا على القارئ العربى بل يتجاوزه إلى النوبى نفسه لأنه ورث هذه اللغة مشافهة لا كتابة ، وهى لغة محادثة لا قراءة حتى الآن ، ظاهرة صوتية لم تقولب بعد للتدوين وإن اصطلح على حروفها واتفق عليها ، فإن النوبى كغيره فى حاجة إلى تعلمها كتابة والدربة والمرانة حتى يتقنها ويتعامل معها .

وهذا محك مهم أيضا فى إشكالية اللغة (لغة الرواية النوبية) لأنه لما لم يكن من الممكن كتابة الرواية بالنوبية مباشرة ــ لما سبق ــ وكذلك لانعدام الجمهور القارئ فى حال كتابتها بالنوبية ــ افتراضا ــ استعاض الروائى النوبى عن ذلك باللغة العربية ــ اللغة المشتركة والمقروءة والتى يفهمها الجنسان ــ ألا أن المواقف الخاصة جدا والتى لا تقوم فيها العربية مقام النوبية فى آداء الموقف وتصويره وتجسيد المعنى يضطر الكاتب إلى التعبير عما يريد بلغته فى إطار الحرف العربى الذى يكد ويجتهد فى أن يضع الكلمة أو الجملة فى صورة منطوقة تكون أقرب إلى الصواب فى حرف عربى حسب ظنه ، خاصة عندما

تقتضى الرواية مزج نسيجها بموال شعبى ، فيأتى هذا الموال على لسان شخصيته لتكون أداة تعبيرية عن الواقع فيحمله الكاتب أبعادا معاصرة ، تتعدد دلالاتها بتعدد الأبعاد الرمزية .

ليس هذا فقط ولكن بعض كتاب النوبة ينوعون فى لغة الحوار ، فتأتى المحادثة بأكملها أو مقاطع منها باللغة النوبية خاصة عندما يكون أحد أطراف الحوار شخصيته لم تغادر النوبة قط ولم تعرف إليها العربية طريقا (الأجداد والجدات والأمهات كبيرات السن أو الأميون الذين لم ينالوا من التعليم قسطا) طبيعى أن يكون حديثها بلغتها ، أو بتحريف العربية فى صورة تمسخها إلى النوبية بقلب حرف إلى آخر ، أو استبدال جملة بأخرى أو اختزال حروف الكلمة ، أو تذكير المؤنث ، وتأنيث المذكر ، ففى رواية "دوامات الشمال" لحسن نور تصر أم جمال على التحادث بلغتها ، وترك الروائى الفهم للمتلقى حسبما تقتضيه مسارات (المونلوج) :

سأل ذو النون أم جمال : أين عم دهب ؟[١]

ـ نظرت إلى غاضبة وسألتنى لماذا لا أتكلم النوبية ؟[٢]

---

[١] دوامات الشمال ، حسن نور ، صـ ١٢٩ ـ ١٣١ .

[٢] أشرت إلى معانى الجمل العربية مترجمة .

ـ إرما نوبيجى آبيميـــه ؟

ـ لقد جئت مصر المدينة صغـــيرا .

ـ هل والداك نوبيـــان ؟

ـ نعم

اتسعت حدقتا عينيها دهشا ... عيناهـــا واســعتان ـ أســودان... كحيلتان ... أصرت أن لا تتكلم إلا لغتـــها التـــى جـاءت بـــها مـــن قراها الهاجعة هناك وراء الشـــلال .

وأين جمال ... ؟ ســـألتها .

ـ إر جمالجا واللا وهبكى آبرجى ؟ (من تريـــد جمـــال أم دهـــب).

ـ إيا منهما ... جمال أو العم دهـــب .

نادت على جمال : جمال ووجمـــال (وو : يـــا : آداة نـــداء)

ـ وجاء صوته من وراء جدار : أيوويو (نعم يـــا أمـــى)

ـ تـــابينو (تعـــال)

وفى موضع آخر تقول ربيعـــة ابنـــة حليمـــة جـــارة عمـــى ذى النـــون[1] :

قالت : ما رأيك ... نحكى حواديـــت ؟

---

[1] دوامات الشمال ، حسن نور ، صـ ١٥ .

سمعت صمتى فقالت : فانه ونجدنـــا كمـــح ججرمـــا ... ؟ (هـــل سمعت حكاية فانه ونجـــد) .

ونموذج آخـــر : دار هـــذا الحـــوار بيـــن ذى النـــون وصليحـــه حسين زوج جد ذى النـــــون الطـــاعن فـــى الســـن عندمـــا تحـــاول الدخول على ذى النون فـــى دورة الميـــاه والظـــلام دامـــس يحيـــط بالمكان بحجة أنها تريد كنس وتنظيـــف دورة الميـــاه .

تقول صليحة بلكنتها المضحكة : إتـــأورى ألـــى كـــده ... (كـــل يوم أنا أكنس بـــالليل) .

قال لها بالنوبية : فجركى كاليكا (اكنســـى الصبـــح) .

قالت : الصبح أشان الطبية (علشـــان الطبيـــخ)

ثم سألتنى بعد أن وضعت الطعام أمامه "مش هنـــا كلـــى"[١] .

وإذا كانت ضرورة السياق ومقتضيات الواقعيـــة دعـــت الكـــاتب حسن نور إلى أن يلجأ فى النص إلى توظيف لغتـــه النوبيـــة ، فإنـــه لجأ أيضا إلى إيراد نصوص شعبية تدعـــم الموقـــف وتـــبرز دلالات معنوية تتوالى من النـــص ، ســـأل ذو النـــون جـــاره فـــى البوســـتة (الباخرة) عن المحطة القادمة التى سترســـو عندهـــا .

---

[١] السابق ، صـــ ٦١ .

قال : دهميت ، ثم سألنى عن قريتـــى .

قورته . لا قورتـــه ... ربمـــا نصلـــها فـــى منتصـــف الليـــل أو الفجر ثم سرح بعينيه إلى البعيد ، أضناه الشـــوق إلـــى أحبـــة غـــاب عنهم طويلا ، فوجد أصابعه تنقـــر علـــى الســـور الحديـــدى الـــذى يسور سطح البـــاخرة ، تـــواءم النقـــر ودقـــات قدمـــه اليمنـــى ... إنساب صوته رخيما دافئـــا :

أمباب كندى ويك كـــاجى

كندى دهبيدى ويك كـــاجى

التقطت الآذان إيقاعه ، فبدأت الأقـــدام تزحـــف نحـــو مبعثـــها ، أحاطته الأجساد التى وجـــدت نفســـها تـــهتز علـــى الإيقـــاع الـــذى جسدوه بخبطات أكفهم ، يرتفع صوت المطـــرب تدريجيـــا .

قارى وأريس نـــارى

مندره فجر شينبو لـــو

شباك ستة جومبولـــو

هيه يا ... سابيدا نيللى يـــا

تقافزت الأجساد مع إيقاعات الأكف ، لكـــن صوتـــا زاعقـــا أخـــرس الجمع فعم الصمـــت[١].

---

[١] دوامات الشمال ، صـ ٣٠ ـ ٣١ .

نلاحظ هنا أن هذه الأحداث المرفودة بالنصوص التراثية تجرى على ظهر السفينة (البوستة) التى تقل النوبيين من الشلال متجهة إلى قراهم المتناثرة على ضفتى النيل إلى الجنوب ، بعد أن يصلوا إلى الشلال بقطار الدرجة الثالثة من أزقة العاصمة وحواريها ، وأسطح عماراتها ، وبدروماتها ، كادت السفينة تصل إلى قرية المطرب بعد تجاوزها لعدة قرى أفرغت خلالها بعض ما كان فى بطنها ويهيج الشوق جار ذى النون فى البوستة الذى أضناه الاغتراب واستثاره اللقاء القريب المرتقب فراح يرفع صوته بالنصوص السابقة .

والمعطى القريب المباشر لتلك الكلمات أنها تدل فى ظاهرها على الفرح والابتهاج بلقاء من غاب عنهم طويلا وشاركه الفرحة والطرب بقية السفر ، إلا أن هذه النصوص فى سياقها التعبيرى كجزئية من الأسلوب العام الذى ينتظم الرواية كل عناصرها ، لها دلالاتها الخفية وإيحاءاتها المتنوعة منها التوجس والخوف من الارتحال إلى الشمال مرة أخرى وفى دوامة لا تنتهى من الاغتراب ببعديه النفسى والظاهرة ، كذلك إن مضمون تلك النصوص أزكى نار الحزن والأسى فى قلوب طائفة من ركاب الباخرة فقدوا عائلهم ، واستعادوا بها (المشهد المأسوى) الذى استدعته الذاكرة بالتوازى .

وهنا نضع أيدينا على وسيلة من وسائل تأكيد المعنى الذى ينساب عبر الصمت وهى (تعاكس الانفعالات) أو (تضاد المشاعر) إزاء مثير واحد ، التفت المشاعر عند نقطة واحدة أو موقف جزئى متمثل فى غناء المطرب بتلك الكلمات ولكن مشاعر كل طائفة أخذت اتجاها معاكسا ، فبينما استشعر القادمون لقضاء الإجازة بمحض إرادتهم بين الأهل نفس ما أحسه المطرب ، نجد ذا النون وأهله يقبعون فى ركن من البوستة ، يجترون أحزانهم على فقيدهم الذى قدموا لتلقى العزاء فيه ، وشتان ما بين الموقفين وإن كان الذى أهاج هذه المعانى المتضاربة بين الطائفتين فعل واحد ، ومع هذا التضاد الظاهر فى رد الفعل إلا أن علاقة خفية ومعنى دقيقا يربط بين الفرح والحزن ، ذلك لأن فرح الطائفة الأولى استشعار طارئ وموقف نشأ فى الأساس عن حزن متغلغل فى الأعماق ومتأصل بالتجربة المكرورة بالاغتراب ودوامته ، وحزن الطائفة الثانية ناشئ عن طارئ مفاجئ يتمثل فى فقد العائل سرعان ما يطويه النسيان ويعود الأهل إلى سابق عهدهم إلى جانب أن تلك النصوص أظهرت تهيؤ النوبى بطبعه إلى الطرب المركوز فى جبلته والتجاوب السريع مع النغم والصوت الشجئ مع أن غرق النوبة ترك فى أعماقه آثارا لا تمحى مع مر الزمن ، إلا أنه ظل يغنى :

تارى وأريس تـــارى
تارى وأريس تـــارى

وفى رواية "الشـــمندورة" لخليـــل قاســـم ، يعتمـــد البنـــاء علـــى استلهام النصوص الشعبية النوبية ، التى يعـــبر فـــى معنـــاه الظـــاهر عن الفرحة بعودة الغـــائب ، وفـــى معنـــاه الإيحـــائى عـــن الحـــزن والألم الذى انتاب "شريفة" وأمها على الغائب الذى لـــم يـــأت بعـــد ، لذلك عندما يعود "أحمد عودة" خال حامد فى الروايـــة مـــن القـــاهرة يسمعون أغنية شعبية نوبية تعـــبر عـــن فرحتـــهم بعودتـــه ، وفـــى الوقت نفسه تعبر عن الحسرة على الغائبين الذيـــن لـــم يـــأتوا بعـــد ، تقول كلمات الأغنيـــة :

أبن أيدنا بالنتون فبايمونـــا
برو وش المرايا بالنتون فبايمونـــا

وعندما لا يفهما حسن المصرى يترجمها لـــه المـــأذون :

لن يغيب عن خاطرى إلى الأبد لـــن يغيـــب
الفتاة ذات الوجه الناعم مثل المرآة لـــن تغيـــب

يعبر النص عن الفرحة التـــى تغمـــر المحـــب بمحبوتـــه عندمـــا يفوز بلقائها ، حينئذ لا تغيب صورتها عنها ، مـــهما تبـــددت الأيـــام والسنون فالرجال يرحلون ، وقد لا يأتون ، لكـــن وجـــه محبوباتـــهم فى ديارهم بالنوبة لا يفارقـــهم ولا يغيـــب .

وفى الوقت نفسه يعبر هذا النص عن مرارة الغربة التى يعانيها الرجال الغائبون عن ديارهم وأهلهم ، شلالى فى (دنقلة) لأن الأزمة واحدة ، وهى عصب الصراع ومحوره فى الرواية النوبية ، جمال لا يحمل من محبوبته على غير رغبة منه فقط ليعود إلى الغربة وقد رضيت أمه عنه ، لذلك يحمل النص الشعبى معنيين متناقضين ، لكنهما يسهمان فى حركية النص الروائى والتراثى معا .

و(الشمندورة) مثلها مثل (دوامات الشمال) تلجأ إلى توظيف النص الشعبى النوبى بلغته لأن ذلك أدل على التعبير ، وأحكم للبناء الفنى للرواية ، واستبدالها بنص عربى يترجمه لا يقوم مقامه ، ولا يؤدى دلالاته وإيحاءاته ، وكما أسلفت فإن هذا الأسلوب الفنى يعد إحدى طرائق وأسباب التميز بين الرواية النوبية وغيرها .

والكاتب حسن نور فى روايته "بين النهر والجبل"[١] أيضا يستلهم الأغنية فى بناء الرواية حيث تتعدد المعطيات ، وتتداعى المعانى وتتوالى فى انبثاق ثرى يقول :

أيجا أيجالنا وو يويو نلو لأيجا

---

[١] رواية بين النهر والجبل ، حسن نور ، صـ ١٠٧ .

نلو سكارن شرتبات تلاج لأيجـــا

ينقر المغنى على الدف فـــى إيقـــاع آخـــاذ ســـريع تلتقـــط الآذان فيردد الجميع فى صوت واحد ..... أيجـــا أيجـــا ...
لى الفرحة يا أماه لـــى
بمذاق السكر الحلو كالشربات لـــى

تتثال المعـــانى وتتداعـــى فـــى النـــص تعبـــيرا عـــن الفرحـــة والانتشاء بالفرصة ، والحركة الدائبـــة لحلقـــة الرقـــص فـــى قـــوة بادية ، يستلهم من ذلك كله الروائى ما يجعـــل النـــص ينبســـط نحـــو الماضى وينحســـر نحـــو الحـــاضر ، نتيجـــة لاســـتحضار الصـــور المتعددة فى وقت واحد ، مـــع الحيويـــة التـــى تـــدب ظـــاهرة فـــى الرواية عبر النـــص.

وفى (دنقلة) يرصد الروائـــى إدريـــس علـــى فـــى طـــرح واع قضية شاب مثقـــف مـــن النوبـــة (عـــوض شـــلالى) ابـــن مرحلـــة سياسية عاصرها باحثا عن قيم يؤمن بها مـــلأت رأســـه ، وتملكـــت كيانه ، وشب على شعارات العدل والمســـاواة والحقـــوق ولكنـــه لـــم يجدها فى الواقع ، ولأنه ذو طبع حـــام وصراحـــة حـــادة اصطـــدم وتمرد وثار ، واجـــه كغـــيره مـــن الشـــباب المطـــاردة والملاحقـــة البوليسية لكنه لـــم يـــهادن ولـــم تخمـــد حركتـــه وتضعـــف ثورتـــه فطورد وســـجن لأن أفكـــاره عـــن الحريـــة والمســـاواة لا تعجـــب

السلطة ، مع أنها مصدر تلك الشعارات وصاحبتها ، ولكن يبدو أن الشباب صدق هذه الفرية الكبرى وغرر به إلا أن عوض شلالى لم يستسلم وكأن هناك ثأرا بائتا بينه وبين السلطة ، فلم تنطل عليه الخدعة فطن إليها ولمس أن الواقع يكذب ادعاءات السلطويين ويفضح نفاقهم ، فساح فى أرض الله يبشر بافكاره ، ويعلنها بين أترابه ينشد تحقيق تلك الشعارات وتطبيقها خاصة المساواة والعدل ، هذان الشعاران اللذان لم يستشعرهما أبدا ، ولم يتحققا منذ وعى الحياة وخبر دروبها وعرك عقابيلها وروض فأقرها ولما يئس واصطدم بالحقيقة المرة أعلن كفره بكل ما على الأرض فى المساحة التى يطفو عليها الوطن المنشأ والمنتمى إليه ، ورفض الواقع المستسلم وبلغ به الرفض ذروته فتمرد وقرر أن يهجر البيئة التى احتضنته ولم تثمر غير الزقوم والحنظل ، وأن يطلق الوطن بالثلاثة ، ويترك كل شىء وراءه فالضياع لا يتمايز ، ويؤثر الرحيل إلى ما وراء البحار والمحيطات .

(عوض شلالى) الذى ترجم الرفض إلى الهجرة والثورة إلى قرار ، كانت مشكلته فى غاية التعقيد سببت له آلاما نفسية وبدنية لا تطاق ، وقضيته لم يجد لها حلا ، ففوق أنه مطارد من السلطة لعشقه الحرية التى ارتضعها وتربى عليها بين أهله،

فهو منبوذ ممن ينتمى إليهم بالهوية من أهل الشمال ، يوسعونه سخرية وتهكماً للون بشرته على حد تعبير الرواية ، وعلى لهجته التى صارت مصدر شقاء له ، وهو متحفز دائما تستفزه مجرد النظرة غير البريئة ، فينبرى مدافعا عن نفسه طالما سنحت بذلك الفرصة وإن لم يكن بيديه فبردود غامزة مثله فى ذلك مثل بحر جزولى الثائر والتنظيمى ابن خال عوض شلالى.

سمع عوض شلالى صول قسم بولاق وهو يهم بالانصراف بعد التحقيق معه ... انتظر ... ماذا قلت ؟ الواحات ... تقصد المعتقل ... آه بالسلامة . سمع الصول يقول لعريف بجواره إن هذا الأفندى من الحمر إياهم رغم وجهه الأسود ... التفت عوض شلالى ورد عليه بغضب عنيف ... نهار أبوك هو الأسود ومؤخرتك هى الحمراء[1] .

وفى موضع آخر يرد عوض شلالى فى القسم نفسه على متطاول أسمعه كلاما جارحا قال : آخر زمن ... كان عند جدى عشرة من هذا الصنف غير الذين اعتقهم لوجه الله ، ولم أتصور أن يأتى يوم يتطاولون فيه على أسيادهم يرد بقوله : أى

---

[1] دنقلة ، إدريس على ، صـ ٢٧ .

أجدادك تعنى ... ؟ الذى كـــان يلعــق أحذيـــة المـــاليك ؟ أم الـــذى كان يورد النساء لعساكر نـــــابليون ؟[١]

سعى عوض شلالى حثيثا فى البحـــث عـــن والـــده الـــذى ســـبقه إلى الضياع فى الشمال فى بر مصـــــر بمـــا يـــوازى البحـــث عـــن الهوية فى البيئة المحتدة التى تستغرق مصـــــر والنوبـــة والســـودان، ولأن ميوله وهـــواه وقـــف علـــى نوبيتـــه فـــهو شـــديد الحساســـية مفرطها حيال من ينتقص منها ، عـــاد أدراجـــه إلـــى قريتـــه ولكـــن قوة بوليسيه تعتقله يحدث نفسه : أبدا لن يتركوه فـــى حـــاله هـــؤلاء الأغبياء ، رغم خروجه من الملعب واختيـــاره لمنفـــى الجنـــوب .

سأله الشرطى : اسمك بالكامل .

لابد من التصادم ، رد متحديا .

اسمى الحقيقى تريد ؟ طبعا .

اكتب عندك اسمى التاريخى طهراقة ، موطنـــــى بـــلاد النوبـــة ، من أكلة أوراق التاريخ ، كنـــا وجعلتونـــا لا نكـــون ، وقـــد جئـــت إليكم لرفع دعوى قضائيـــة ضـــد بنـــاة الخـــزان والســـد ومطالبـــا بحدودى القديمة من أسوان حتـــى دنقلـــة العجـــوز لإقامـــة حكومـــة مؤقتة ، وحددت لون علمنا بالأسود وســـطه حدقـــة ونبـــل ، وليـــس

---

[١] السابق ، صـــ ٢٨ .

لدينا مانع من الاتحاد مع الشمال ، وسنطرح ذلك على مائدة المباحثات اكتب يا شاويش" [١]

هذه الفقرة تترجم بوضوح فكرة الرواية ، وما يعتمل فى صدر عوض شلالى من ثورة ورفض لكل ما هو شمالى فى اعتزاز باد بالجنوب وأهله ولأنه أصيب بالإحباط فى الشمال وخبر أهله واستقر فى نفسه أنهم ليسوا أهل عشرة ولا وفاء حمل عبء الدعوة إلى انفصال الجنوب عن الشمال ، ولأفكاره المتمردة والثائرة ظل مطاردا فى كل مكان حتى هم بالفرار إلى داخل حدود السودان ، إلى أهله فى حلفا ودنقلة شجعته حوشية بعد رفض وامتناع خوفا عليه يذهب مع الإدلاء يتهربون من دوريات الحدود يتحايلون ، يصلون إلى (أبو حمد) ، داخل حدود السودان بعد رحلة دامت أربعة عشر يوما بلياليها ، ثم يعود إلى قريته تنعقد له جلسة محاكمة من أجاويد البلد يطفش بعدها هربا بهمومه التى أثقلت كاهله إلى خارج هذا العالم المحدود والمكدود الذى أجهض أفكاره وقتل فيه طموحه .

(دنقلة) رواية من ثلاثة فصول الأول منها بعنوان : (المنفصل) والثانى بعنوان (محاكمة عوض شلالى) والثالث

---

[١] دنقلة ، إدريس على ، صـ ٤٣ .

بعنوان (أحـزان حوشـيته وحلميـة) ، الروايـة بفصولـها تتـوزع ثورة عوض جزولـي ، وتتقاسـم آراءه والثـالث خـامدة ، نتيجـة حتمية لمـا دار مـن أحـداث فـي الفصليـن السـابقين ، تتلاقـى الأحداث وتتعقـد تبعـا لحركـة شـخصيات ثلاثـة تعـد رئيسـية ومحوريـة فـي الروايـة ؛ عـوض شـلالى وحوشـية وحليمـة ، ويمكن إضافة بحر جزولـي كقطـب رابـع فـاعل فـي الأحـداث الأسلوب الغالب على الرواية السرد الداخلى البيئـة تتسـع لمسـاحة شاسعة ، أتاح الكـاتب أن يسـتغل أبعادهـا المختلفـة فـي إثـراء الحركة ، والانتقال البطىء من وإلـى ، وتتبـع التفـاصيل الدقيقـة ، وحصر المظاهر الحياتية المشـتركة بيـن النوبييـن داخـل حـدود مصر والسودان ، كل ذلك توسـلا لإثبـات الهويـة الواحـدة التـي عانت المأساة نفسها بالهجرة جنوبا وشـمالا والصـراع يحتـدم فـي استغلالية فى كل فصل حتى نهايتـه ، ويبلـغ ذروتـه فـي الفصـل الثالث ، تقتلـع حوشـية النـور اقتلاعـا مـن أرض تشـبثت بـها طويلا، ويلقى بها فى أرض لـم ترهـا مـن قبـل ، ومـع الأرض فقدت الزوج والولد الـذى أهمـل بـدوره حليمـة التـي تزوجـها لإرضاء أمه ثم هجرها كصنيـع أبيـه مـع أمـه ، وتطـول غيبـة عوض شلالى ، وتحترق حليمـة فـي نفسـها جـوى ، وتقـع فـي المحظور منقادة بالشيطان مـع معـدول الصعيـدى هكـذا ، الـذى أنقذها من حلم فظيع نهش فيه الرجال جسـدها وتبادلوهـا عاريـة ،

صورة قاتمة ونهاية تنذر بالثورة ، على وضع مزر لم يؤلف من قبل ، وصرخة زاعقة على الأرجح لن تجد لها صدى ، واستنهاض لثأر وثورة لم تكن من طبيعة أهل النوبة ولا في طبعهم ، وهمة بعد لم تقو على مجابهة الصعاب ولم تعرف حب المغامرة .

على أية حال إن هذه العجالة لا يمكن أن تكون مصباح ديوجين الذى يكشف لنا أكثر مما قلناه في الرواية النوبية التى لن يضيرها ولن يضير الكتاب النوبيين أن تكون إبداعاتهم عربية الهوية ، إنسانية المضمون ، نوبية القضايا والهموم ، تسهم بالروافد فى بحر لجى متلاطم الأمواج يزداد إتساعا وعمقا مع مرور الزمن ، فقط ما أود أن أشير إليه هنا أن كل عنصر فى هذه الروايات يحتاج إلى دراسة مستقلة للتعرف على طرق الروائيين في توظيفه لأداء مهامه الفنية مع التقنيات الأخرى وما يميز رواية عن أخرى أو كاتبا عن آخر في الطريقة والأسلوب الذى يتعامل به مع العنصر منفردا أو مع العناصر جميعها فى مشروعه القصصى .

أ.د. زهران محمد جبر عبد الحميد
أستاذ الأدب والنقد
كلية اللغة العربية - أسيوط